

المصطلح بين لغة البحث العلمي الموحدة ولغات التخصص المتعددة

حورية مدان¹

تاريخ النشر 2019/08/01	تاريخ القبول 2019/07/01	تاريخ الإرسال 2019/06/01
------------------------	-------------------------	--------------------------

الملخص:

مسايرةً للتطوّرات العلمية وسرعة المعلوماتية، عرفت اللسانيات تقدّماً فائقاً في تناولها لمختلف القضايا العلمية والمعرفية، وازدادت تخصّصاتها اللغوية دقة في معالجة أهمّ قضايا الساعة من مثل البحث المصطلحي باعتبار المصطلحات مفاتيح العلوم، والرصيد الداعم للغة البحث العلمي، والنواة المركزية المتحركة في جهاز اللغات المتخصّصة.

تهدف هذه الورقة البحثية إلى توضيح ملامح كلّ من لغة البحث العلمي، ولغات التخصص، مع إستنتاج دور المصطلح وضوابطه في كلّ منهما.

الكلمات المفتاحية: لغة البحث العلمي- المصطلحات- اللغات المتخصّصة.

Résumé :

Conformément aux développements scientifiques, techniques et informatiques, la linguistique a fait d'immenses progrès dans le traitement de divers problèmes scientifiques et cognitifs et sa spécialisation linguistique est devenue plus précise pour traiter les questions les plus importantes telles que la recherche terminologique, soutien de la langue de la recherche scientifique, et noyau central contrôlant les langues spécialisées.

Le but de cet article est d'établir des frontières nettes entre les caractéristiques propres à la langue de la recherche scientifique, et celles qui concernent les langues spécialisées tout en clarifiant le rôle des unités terminologiques entre elles.

Mots-clés: La langue de la recherche scientifique – les termes- les langues spécialisées.

الموضوع:

¹ - حورية مدان

تَحظى القضايا اللغوية باهتمام ملحوظ ومتزايد من قبل الباحثين والعلماء على مختلف تخصصاتهم لما للغة من أهمية بالغة في حفظ المعارف، ونقل العلوم وتسجيل تراث الأمم، وتبيان ما يعتلج في ذهن من أفكار ويختلج في النفس من عواطف ومشاعر. وهي أهمية تتأكد بمرور الزمن باعتبار اللغة موضوعاً للدراسة والبحث، ناهيك عن كونها وسيلته التي لا غنى عنها. فاللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية، ووسيلة تواصل وتبليغ وتعبير، ولهذا إنشغل الباحثون بقضاياها، وبحثوا وظائفها، وحاولوا الكشف عن خباياها، وتوضيح علاقاتها ودقائقها، فقاربوها بالكلام وهو « نوع من السلوك الفردي الذي يتجلى عن طريق كلّ ما يصدر عن الفرد من أقوال ملفوظة أو مكتوبة »¹، من جهة، وباللسان وهو « النظام العام للغة، ويضمّ كل ما يتعلق بكلام البشر »² من جهة أخرى، فكانت اللغة نتاج كلام الأفراد، أي مجموع الممارسات الفردية المنطوقة.

ومجموع اللغات تشكل النموذج الاجتماعي المثالي الذي يدعى اللسان والذي يحتضنه المتكلمون، أو يحاولون، اعتماداً على مخزون القواعد المتمثلة في أذهان المتكلمين. ولهذا كانت اللسانيات مجالاً واسعاً وخصباً لدراسة مختلف القضايا اللغوية، منسوبة إلى اللسان دون الكلام واللغة، باعتباره (اللسان) دالاً على النشاط اللغوي المثالي والذي يستغرق تشكّله مرور أزمنة طويلة، وتوالي الأجيال، ممّا يسّر دراسته وبحث ظواهره، وملاحظة هذه الظواهر بشكل علمي ضمن أبحاث ودراسات فتحت الآفاق المتراصة أمام القضايا اللغوية التي تُطرح بإلحاح واستمرار للنقاش والدراسة في أرقى المؤسسات الأكاديمية، والجامعات والمراكز البحثية في العالم.

وتعدّ قضايا المصطلح ولغة البحث العلمي واللغات المتخصصة من القضايا الشائكة، المتشعبة الفروع، المتجذّرة في كلّ حقل معرفي، ومجال علمي، بل وفي أبسط مجالات الحياة اليومية، كما لا تستغني عنها لغات العالم، بل ولا تستغني عنها أكثر المجتمعات تخلصاً لأنها وثيقة الصلة بوظيفة التواصل مع الآخر، وبالحياة والتعبير عن قضاياها سواء للمستحدثات العلمية والفكرية والحضارية، أو لليوميات العادية التي تقتضي مرافق ومرتفات ذات أبعاد معرفية واجتماعية واقتصادية وطبيعية وغيرها.

والملاحظ أنّ مسار التطوّر التكنولوجي والتدقيق العلمي يفرض مساراً موازياً له خاصاً بالمخزون المصطلحي، يعبر عنه، ويحفظ مفاهيمه فينقلها ضمن ألفاظ وتعبيرات طيّعة واضحة مباشرة ودقيقة حتى لا تتشابه مختلف الخطابات المعرفية، ولا تتعطلّ عجلة الركب العلمي والتكنولوجي أوتبطلاً.

فالمصطلحات مفاتيح العلوم، من ملك زمامها ملك مقاليد المعرفة والعلم والتقنية، وعلم المصطلح علم حديث يتناول الدراسة العلمية للمفاهيم والمصطلحات المعبرة عنها. ولا مجال للتمكّن من معرفة ما إلا عن طريق جهازها المصطلحي الذي يشكل قوام لغة التخصص. إذن، فما هي طبيعة هذه العلاقة بين المصطلح وبين لغة التخصص؟ وما علاقتهما معا بلغة البحث العلمي؟

لغة البحث العلمي:

بداية، ينبغي استيعاب كلّ ما يمكن أن يشير إليه مصطلح البحث العلمي من دلالات وأبعاد وظيفية وملامح الآليات البحثية وعناصر الخطاب العلمي ومكوّناته. فالعلم لغة هو « إدراك الشيء على ما هو عليه، أي على

حقيقته، وهو اليقين والمعرفة»³. أمّا في الاصطلاح فتعريفات العلم كثيرة ومتنوعة، نذكر منها تعريف العالم الفيزيائي ألبرت انشتاين حين قال: «التفكير المنهجي الذي نوجّهه نحو اكتشاف الارتباطات التي تنتظم وفقاً لما لها تجاربنا الحسية»⁴. فأساس العلم وجوهه هنا هو العمل المنهجي وإعمال الفكر بطريقة منطقية منظمة، خدمة لغايات واضحة وأهداف محدّدة. وتؤكد كثير من الدراسات على ضرورة تأسيس المعرفة العلمية على الملاحظة والدّراسة والتجريب، مع تحديد أهداف الدراسة تحديداً مسبقاً. ونلاحظ أنّ البحث العلمي لغة تركيب إضافي يدلّ على عملية فكرية لغوية موجهة لاكتشاف حقائق معرفية، وتوضيح قضايا متنوّعة، وحلّ إشكالات علمية، أو تقنية أو غير هذا. يعرفه الدكتور أحمد بدر بقوله: «هو وسيلة للاستعلام والاستقصاء المنظم والدقيق، الذي يقوم به الباحث، بغرض اكتشاف معلومات أو علاقات جديدة، بالإضافة إلى تطوير أو تصحيح أو تحقيق المعلومات الموجودة فعلاً، على أن يتبع في هذا الفحص والاستعلام الدقيق، خطوات المنهج العلمي»⁵. فالباحث العلمي يعتمد على منهجية تقصّي المعلومات، والتفكير في مختلف القضايا المعرفية، ودراستها، وتحليلها، ومعالجة ما يُشكّل منها. وهذه دلالة عامة وشاملة لجميع التخصصات المعرفية، دون أن تتقيّد بمجال أو طابع أو منهج بعينه. مع ضرورة اعتماد الأسلوب العلمي الدقيق والمنظم في تحرير النتائج التي يتوصّل إليها بلغة تخصّ الباحثين والعلماء عموماً، والطلبة في إطار إنجاز مذكرات التخرّج خصوصاً.

والواقع أنّ الكثير من الطلاب يصادفون صعوبات في إعداد البحث العلمي رغم سهولة حصولهم على المعلومات ورغم وفرة المراجع الإلكترونية والورقية. لكنّ كتابة البحوث العلمية تشكل انشغالا كبيرا لهؤلاء باعتبارها تتطلب نوعاً من الكتابة الواعية الملتزمة بمعايير بعينها وضوابط ضرورية. فما هي هذه المعايير؟

تتلخص تلك الضوابط في أهمّ الخصائص التي تجعل بحثاً ما علمياً بغض النظر عن موضوعه وأهدافه. فقد يكون الموضوع تاريخياً أو فلسفياً أو فنياً ولكنّ دراسته تكون ذات طابع علمي. يقول الدكتور صالح بلعيد في تعريف اللغة العلمية: «هي تلك اللغة التي تتوفر فيها مجموعة من المواصفات العلمية، ونشير إلى أهمّها:

الميل إلى الدقة

توفر الاختزال

الوضوح الذي يجلو الحقائق ويعين على الفهم

البساطة والبعد عن التقيّد الذي يسلم من الإيهام»⁶، فهو يحرص على أن تتوفر في لغة العلم مقاييس شاملة لكنها ضرورية مثل الدقة والإيجاز والوضوح. أمّا الأستاذ العربي بلقاسم فرحاتي فيخصّص البحث العلمي الأكاديمي بقوله: «إنجاز البحث في المستويات الثلاثة»⁷، وفي أيّ حقل من حقول المعرفة، والاختصاصات العلمية، يخضع لمنهجية علمية تتضمّن مراحل وخطوات عدّة متتابعة تخضع لمبدأ التكامل، وإجراءات وطرق علمية منطقية ملزمة لا يمكن تجاوزها»⁸. فالتمسك بطابع العلمية يعني التزام المنهج الواضح المنظم، والتحلي بالموضوعية والدقة والمباشرة.

إذن، فالبحث العلمي يقتضي جملة من الضوابط التي يلزم بها الباحث نفسه حتى لا يَحيدَ عن صفة العلمية التي تضمن له نجاح بحثه. وهذه الخصائص تقتضي من ضمن ما تقتضيه: البعد عن طابع الخطابية والإنشائية، لأنّ الموضوعات العلمية في غالبيتها ذات طبيعة وظيفية، أي تهدف إلى تحقيق أغراض محدّدة ولا مجال فيها إلى التوسّع في الكلام والإطناب، وإنما يجب على الباحث استخدام التعابير الدقيقة والجمل القصيرة والعبارات الواضحة والتراكيب المناسبة التي تحقق الهدف من البحث مع تجنب الحشو. وقد يتبادر إلى الذهن أنّ الموضوعات اللغوية أو النقدية تفسح بعض المجال لطابع الخطابية أو الإنشائية، لقربها من الموضوعات الأدبية، لكن الأمر غير هذا، فباللسانيات وهي «الدّراسة العلمية الموضوعية للسان البشري»⁹، تتم دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، فكانت الدراسات والبحوث شاملةً مختلف مستويات التحليل اللغوي، من أصوات، ومفردات، وتراكيب وسياقات متنوعة، بالوصف والتحليل والتعليل. وكانت التطوّرات سريعة، والنتائج مذهلة، فتعدّدت المدارس اللسانية، وتنوّعت الاتجاهات الفكرية، وتفرّعت التخصصات الدقيقة من لسانيات نظرية وأخرى تطبيقية، وكانت اللسانيات التعليمية التربوية واللسانيات العيادية واللسانيات التقابلية،،، وكان علم الأصوات، وعلم الدلالة، وعلم المصطلح، وغيرها من التخصصات الدقيقة والكثيرة التي تفرّعت وتشعبت وتكاثرت خاصة في عصر ذي طبيعة علمية متطورة، واتجاه تكنولوجي دقيق وطابع العولمة الذي أثر في كل مناحي الحياة الفكرية والحضارية، ضمن أبحاث ودراسات فتحت الآفاق المترامية أمام القضايا اللغوية التي تطرح بالحاح واستمرار للنقاش والدراسة في أرقى المؤسسات الأكاديمية والجامعات والمراكز البحثية في العالم. وبهذا أصبحت البحوث اللغوية ذات طابع علمي دقيق، يتطلب لغة ذات مقاييس علمية مضبوطة شبيهة بتلك التي تضبط مختلف العلوم الدقيقة.

ثمّ ينبغي اعتماد اللغة المباشرة في البحث العلمي، وتجنّب استعمال المعاني المجازية والصور البلاغية نحو التشبيه والكنية والتي ينتجها الخيال وتلوّنها العاطفة وهي من العناصر المقصاة من معجم البحث العلمي لأنّها تنتمي إلى دائرة الذاتية وتخالف طابع الموضوعية الذي هو قوام العلمية، مع مناسبة الحقل المعرفي ومستوى المتلقي وثقافته.

وإبداعية الأسلوب غير مقتضاة خاصة والموضوعات العلمية لا تحتمل الإحالة إلى ذات الباحث نحو التعبير عن المشاعر وتبيان الأحاسيس، فاللفظ لا يُنتقى من منظور الصنعة، وإنما يكون انتقاؤه من منطلق الدلالة الدقيقة على القصد. ويتمّ هذا بتفادي التعبير عن الآراء الذاتية، أو الميل إلى الأفكار بتأثير من العاطفة، والابتعاد عن الأحكام التقييمية المنبئية على أسس ذاتية كأن يتحدث الباحث عن اللغة العربية في بحث علمي فيصفها بالجمال والروعة والموسيقى العذبة، وأنها تسلب القلب، وتسلي الفكر، فيهم بتعابيرها المستمع، ويخلق بعيدا فوق السحب العائمة في الفضاء. فهذا الوصف لا صلة له بالبحث العلمي الذي يفرض علينا التحلي بالموضوعية وتوضيح القضايا بالسلبيات والإيجابيات مهما كانت صلتنا بالموضوع، مخاطبا العقل أولا وأخيرا، مدعما بالشواهد والأمثلة والأدلة المنطقية والمقنعة.

وتتصف منهجية البحث العلمي بالوضوح والتنظيم والمنطقية في جمع المعلومات وفق ما يتطلبه الموضوع، ونقلها مع الحرص على التوثيق بدقة وتحليل المعلومات على ضوء المناهج والقوانين والنظريات العلمية المتفق عليها، والتمكن من المعجم العلمي وتوظيف المصطلحات المناسبة بشكل دقيق ومفهوم دون إغفال استغلال الذكاء الاصطناعي الذي يساهم بقسط كبير في زيادة حجم المعلومات، ووفرة المراجع، ويساعد في سرعة البحث والتقصي ودقته. وينبغي استعمال الإشارات وعلامات الترقيم والمختصرات والرموز مع ذكر مفاتيحها، واعتماد المخططات البيانية والجداول والرسومات التوضيحية، إن كان البحث يتطلب ذلك.

والملاحظ إنَّ هيكلية موضوع البحث ضرورة حتمية ضمن خطط مرحلية، جزئية فكلية، حتى لا تتشتت المعلومات، فتضبط الأفكار، وتنظم الأبواب والفصول أو المباحث والمطالب تنظيماً منطقياً، متسلسلاً وفق ما تقتضيه طبيعة الموضوع، وبما يخدم سير العمل وتقدمه نحو الحلول المرتقبة للإشكالات، والنتائج المرجوة للدراسة.

ثمَّ ينبغي التأكيد على أنَّ من سمات لغة البحث العلمي أن تكون لغة واضحة، معبّرة عن أفكار الباحث بجمل قصيرة، وتعابير موجزة ومباشرة مع استخدام المصطلحات العلمية بشكل دقيق ومفهوم وتنظيم الأفكار تنظيماً منطقياً متسلسلاً وفق منهجية محدّدة يسترشد بها من أول البحث إلى آخره.

وأخيراً، لا بدّ أن تقتزن المعايير السابقة بمراعاة قواعد اللغة من نحو وصرف عند كتابة البحث حتى يكون التعبير اللغوي في الخطاب العلمي سليماً صحيحاً. فقد ينتقص من علمية البحث أن تكون لغة التحرير خاطئة كأن ينصب الفاعل ويرفع المفعول في مادة الرياضيات فيقول الباحث: (نرسم خطان متوازيان).

والباحث الناجح هو الذي يحرص على مراجعة بحثه مراجعةً دقيقة ومستمرة، منقحاً أسلوبه، متأكداً من بياناته، متابعاً معلوماته، وتحليلاته، متثبتاً من سلامة لغته، وحسن استخدامه للمصطلحات في دراسته، موثقاً كل ما يورده بحثه من المراجع التي استعان بها، منقحاً مدقّقاً، ومستهدفاً طرح رؤى جديدة في موضوع إشكالي هام، أو قضية من قضايا العصر.

هذا فيما يخصّ لغة البحث العلمي، فما علاقة هذه اللغة بالمصطلح، إن كانت هناك علاقة؟

سبق وأن ذكرنا بأنّ لغة البحث العلمي تعتمد على المصطلحات التي تنتهي إلى المجال المعرفي الخاص بالموضوع المدروس لتوضيح الأفكار، والدلالة عليها بدقة ومباشرة. فما المقصود بالمصطلحات؟ وما حدود استعمالها في البحث العلمي؟

المصطلح ، مفهومه ووظيفته:

في زمن العولمة، وعصر التقنية الدقيقة، ومع تطوّر العلوم وتعدّد التخصصات وتنوّعها، تضاعفت الحاجة إلى وضع المصطلحات لاستيعاب المستجدات من المفاهيم، والمستحدثات من المخترعات التي تكتسح العالم دون هوادة، وتلبية لمتطلبات تلك المتغيّرات السريعة. فقد ولّى زمن التواصل بالرسالة أو الهاتف الثابت إلماً، ولم يعد هناك مجال للخطابات المطوّلة، إنما فرض سوق الاقتصاد والعمل، وفضاء الثورات المعرفية، والعلمية

والتكنولوجية أن يتمّ التواصل بسرعة فائقة لا تتأتّى إلا بالمصطلحات والرموز والمختصرات التي تنقل العلوم، وتترجم المعلومات وتدلّ على المفاهيم بدقة عجيبة. ولنا أوضح الأمثلة في المصطلحات الفيزيائية مثلاً، فالثقل (ث) مصطلح يدلّ على فعل جذب الأرض على جملة ميكانيكية، ويساوي كتلة الجملة مضروبة في الجاذبية الأرضية، ووحدته النيوتن. فيكفي أن نكتب هذه المعادلة لنعبّر عن مجموع هذه المعاني: [ث=ك×ج].

يقول عبد السلام المسديّ موضحاً هذه القضية: «مفاتيح العلوم مصطلحاتها، ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى، فهي مجمع حقائقها المعرفية وعنوان ما به يتميز كلّ واحد منها عمّا سواه. وليس من مسلك يتوسّل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية حتى لكأنّها تقوم من كلّ علم مقام جهاز من الدوال ليست مدلولاته إلا محاور العلم ذاته»¹⁰.

والمصطلح وحدة لغوية، أو تركيب لغوي وضع بالاتفاق للدلالة على مفهوم ما، فصلّته باللغة العامة قائمة، ولكنّها تتجه اتّجاهاً مختلفاً يصفه مصطفى الشهابي بقوله: «الاصطلاح يجعل إذن، للألفاظ مدلولات جديدة غير مدلولاتها اللغوية أو الأصلية... والمصطلحات لا توجد إرتجالاً، ولا بدّ في كلّ مصطلح من وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة كبيرة، كانت أو صغيرة بين مدلوله اللغوي ومدلوله الاصطلاحي»¹¹. وفي الموضوع ذاته يقول عبد البستاني: «والاصطلاح أيضاً هو إخراج الشيء من معنى لغوي إلى معنى آخر لبيان المراد»¹². ولهذا، لم يكن وضع المصطلح من اختصاص اللغويين فحسب، بل كان من الضروري أن يساهم فيه العالم بمفهومه ووظيفته. يقول عبدالرحمن الحاج صالح، رحمه الله: «هكذا توضع المصطلحات في البلدان التي بلغت مستوى عالياً من العلوم والتكنولوجيا، فعامة الخبراء في علم أو فنّ مخصوص هم الذين يصوغون الألفاظ التي يحتاجون إليها عند ظهور الشيء المحدث لا اللغويون، إلا أنّ هؤلاء قد يوجّهون الواضعين بل ويرشدونهم»¹³. فإذا تمّ وضع المصطلح العلمي بالطريقة السليمة، والمنهج الصائب، وضمن المقاييس المحدّدة في علم المصطلح، فإنّ نجاحه يتحقق باستعماله وشيوعه بفضل دلالاته الواضحة والمباشرة على مفهومه.

وهكذا في جميع العلوم، والمعارف، إذ تكتسي المصطلحات أهميّة قصوى في التعبير عن مختلف المفاهيم بحروف معدودة. فالكلاسيكية والرومانسية مثلاً مصطلحان مختصران لتيّارين فكريين واتجاهين حيويين لا تحيط بهما الكتب المطوّلة. لكن يكفي أن نستدلّ عليهما بمصطلحيهما المختصرين حتى نستحضر ملامحهما، وخصائصهما. ولذا تعدّ المصطلحات مفاتيح العلوم والتقنيات فبدونها تستغلق معانيها، وتستعصي على الأفهام. يقول الدكتور عبد السلام المسديّ أيضاً: «السعي إلى تفادي المصطلح يؤلّ إلى شرح المفهوم وتفكيكه إلى مركباته التقريبية من المعاني وظلال المعاني، ولما كانت السبيل الوحيدة هي اللغة، فإنّ في ذلك ازدواجاً وظيفياً لا تطيقه اللغة بطبيعتها وبديهي أنّ الظاهرة اللسانية تكفل الإبلاغ التواصل في إحدى وظائفها، ولكنّها تكفل أيضاً القدرة على أن نتحدّث بها عن أنفسها، وذلك ما نصطلح عليه بالوظيفة الانعكاسية، غير أنّ اللغة لا تنصاع إلى تراكم الوظائف في نفس الحيّز الأدائي، فكما يتعدّد أن تُزاوج في نفس اللحظة الحديث باللغة عن غير اللغة، مع الحديث باللغة عن اللغة، يتعدّد عليك بنفس الصورة، أن تتحدّث باللغة عن العلم، وتتحدّث في نفس اللحظة باللغة عن لغة الحديث عن العلم»¹⁴.

فالعلاقة بين المصطلح والعلم علاقة وطيدة لا يمكن فصلها، إذ لا يمكن لأي علم أن يعبر عن مفاهيمه، ويقدم معلوماته بدون الاستعانة بعلم المصطلح، بل لا وجود للعلم بدون مصطلحات. ثم إن «تاريخ المصطلحات هو تاريخ العلوم، وكل علم جديد يحتاج إلى مصطلحات جديدة، وكل تصور جديد يدعو صاحبه إلى خلق مصطلحات جديدة»¹⁵.

ويتبين لنا هذا الأمر جلياً حين نطالع مجموع المعادلات الرياضية، أو الفيزيائية أو الطبيعية أو اللغوية التي تترجم مختلف التفاعلات، والعلاقات بين مختلف الظواهر الطبيعية أو غيرها. هل يمكن التعبير عن ثاني أكسيد الكربون، وهو مركب كيميائي يتكون من ذرة كربون مرتبطة بذرتي أكسجين بأفضل من الرمز CO_2 ؟ وهل نتصور بقاء هذه الدلالة بهذا الوضوح حين نستغني عن الرموز المصطلح عليها؟ ولنتأمل مثلاً مصطلح (البنوية) وما تحمله من شحنة دلالية، فكرية لغوية وأدبية نقدية، بمجرد ما تذكر التسمية إلا ونستحضر منهج بحث معين يقوم على دراسة العلاقات المتبادلة بين العناصر الأساسية المكونة لبني يمكن أن تكون: فكرية مجردة، لغوية، أو غير هذا، ونستحضر أنواعها من مثل البنوية اللغوية، وخصائصها من مثل الوصفية، واعتبار اللغة بناء متشابه للوحدات الداخلية، ونظاماً متماسكاً لا مجال فيه للعناصر الخارجية، وإنما يقوم على شبكة من العلاقات بين مختلف التراكيب وتفاعلاتها مع النظم التي تضبطها، بل ويستحضر المصطلح المدارس اللغوية التي انتهجت البنوية ويستتبعها بقائمة علماء اللغة الذين ارتبطت أسماؤهم بالبنوية، فنذكر: دو سوسير، ساير، جاكسون بلومفيلد، وغيرهم. بل وقد يستحضر مصطلح (البنوية) الاتجاهات الفكرية اللغوية التي جاءت كرد فعل لها، لأن الفكر يتشعب ولا يتجزأ، فنحن نتعرف على مفهوم البعيد بمعرفتنا لمفهوم القريب، ونحكم على الشيء بالطول من خلال معايير القصر لدينا، والأمر شبيه بكرة الصوف التي ما إن نمسك برأس الخيط منها، حتى ينجذب كل الخيط. والمصطلح هو رأس الخيط، مما يوضح الطاقة الدلالية للمصطلح، ويجلي وظيفته وأهميته في المجالات المعرفية وجميع مجالات الحياة أيضاً. وفي هذا المعنى يقول الشيخ بكر أبو زيد: «إن تاريخ العلوم تاريخ لمصطلحاتها، وإنه لا حياة لعلم بدونها وعلمية الاصطلاح في العلوم، كعلمية الاسم على المولود في إيضاح المقصود، وتحديد المفهوم. وقد علم أن مصطلحات كل علم توجد معه، أو بعده بالضرورة، فيسعى العلماء حين وجود الشيء إلى تسميته، فتتم على أساس من العلاقة بين اللغة والاصطلاح»¹⁶.

فلا سبيل لعلم أو معرفة إلا بامتلاك زمام مصطلحاتها، وهذا ابن تيمية يقول: «فإن من قرأ كتب النحو أو الطب أو غيرها، لا بد أن يعرف مراد أصحابها بتلك الأسماء، ويعرف مرادهم بالكلام المؤلف. وكذلك من قرأ كتب الفقه والفلسفة وغير ذلك»¹⁷، ويسوق ابن تيمية أمثلة كثيرة من الأسماء الشرعية، نحو: الصلاة، والزكاة، والصيام والحج، مفرقاً بين معانيها اللغوية ومفاهيمها الاصطلاحية ثم يقول: «وهذه الحدود قد يظن بعض الناس أنها حدود لغوية، يكفي في معرفتها العلم باللغة، والكتب المصنفة في اللغة، وكتب الترجمة، وليس كذلك على الإطلاق»¹⁸. فهو يشير بوضوح إلى أن معنى الكلمة في المعجم اللغوي يختلف عن مفهوم المصطلح في المعجم الخاص، وأن للعلوم حدودها ومصطلحاتها التي لا يتأتى فهمها إلا للعارف بها. وفي هذا المعنى يقول محمود فهمي حجازي: «المصطلح اسم قابل للتعريف في نظام متجانس، يكون (تسمية لشيء)، ويكون منظماً (أي في نسق متكامل) ويطابق دون غموض فكرة أو مفهوماً»¹⁹. أي إن المصطلح وحدة لغوية تتكون من تسمية ومفهوم. فهو

إذن صيغة مرتبطة بدلالة مفهومها ومجالها العلمي. وكثير من المصطلحات كانت منتمية في الأصل إلى المعجم اللغوي العام، دالة على معانٍ معيّنة ثم انتقلت إلى المعجم الخاص حين اتفق العلماء على إعطائها مدلولاً معيّناً، ضمن حقل معرفي محدّد. ويستمرّ هذا التفاعل بين المعجمين اللغويين العام والخاص، استمرارية الحركة العلمية، والتطوّر المعرفي، والثورة التكنولوجية. علماً أنّ المصطلح يتميز عن الكلمة العامة بشروط أهمّها: أن يكون التعبير الواحد عن المفهوم الواحد، فلا مجال للتّرادف أو المشترك اللفظي في المجال المصطلحي، وأن تكون الدلالة واضحة ومباشرة على المفهوم، وأن يتمّ تحديد المفهوم في حقل معرفي معيّن، وداخل تخصّص واحد، مع تفادي الثقل والإطالة في التعبير.

إذن، يتّضح ممّا سبق ألا وجود للعلم بدون مصطلحاته، وكما يوضح عبد السلام المسدي: «الوزن المعرفي في كلّ علم رهين مصطلحاته، لذلك نسّمّيها أدواته الفعّالة، لأنّها تولّده عضويًا، وتنشئ صرحه ثمّ تصبح خلاياه الجنينية التي تكفل التكاثر والنماء»²⁰.

فإذا تأكّدت لدينا صلة المصطلح بالعلم، وأنّه لا وجود لأحدهما دون الآخر، أمكننا فهم العلاقة بين المصطلح والبحث العلمي من جهة، وبينه وبين لغة البحث العلمي من جهة أخرى.

مكانة المصطلح من لغة البحث العلمي:

المصطلح مفهوم علمي أو تقني أو معرفي، يشكل موضوع البحث العلمي، وهو وحدة لغوية معبّرة عن ذلك المفهوم، وتشكل لبنة من لبنات لغة البحث العلمي. فمن خصائص لغة البحث العلمي أن تستند إلى المصطلحات لتنقل الكمّ المعرفي والمعلوماتي الذي يخصّ الموضوع، محلّ الدراسة.

وحين الحديث عن لغة البحث العلمي، وخصائصها، لاحظنا أنّ منها خصائص معجمية متعلقة مثلاً بتخيّر الكلمات السليمة، الواضحة، الدقيقة التي تخدم الخطاب العلمي في مجاله البحثي وخصائص تركيبية متعلقة مثلاً باعتماد الجمل الموجزة، المباشرة البعيدة عن المجاز والصور البيانية، والتعابير الذاتية، إلى جانب خصائص مصطلحية باستخدام المصطلحات التي تنقل الشحنة المعرفية الخاصّة بموضوع البحث.

ومعروف أنّ لغة البحث العلمي، أيّاً كان موضوعه، لا يمكن أن تنقطع عن خصائص اللغة العامة باعتبار اللغة أداة وظيفية وتنظيمية معاً. وهكذا، يمكننا النظر إلى البحث العلمي نظرتنا إلى نصّ من نوع معيّن، فالكلمة متصلة بسياق لغوي يؤثر في دلالتها، وتتأثر هي أيضاً بدلالات الوحدات اللغوية التي تسبقها وتليها، ومن ثم يجب الالتزام بالضوابط الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية التي تنتظم جميع النصوص، مهما كانت أنواعها وموضوعاتها. ثم إنّ للكلمة صلة بالسياق الدلالي الخاص بموضوع النص الكلي، ومجاله العلمي الذي ينتهي إليه، فكان انتقاؤها قائماً على مدى خدمتها لهذا السياق، وما الذي تضيفه، سواء كانت من المعجم اللغوي العام، أو كانت مصطلحاً ينقل مفهوماً خاصاً. فلغة البحث العلمي لا تخص لغة واحدة، ولا حقلاً معرفياً معيّناً، وإنما تعالج القضايا المعرفية بجميع اللغات، وفي جميع العلوم والمعارف، مستعينة بالمصطلحات باعتبارها ناقلة للمفاهيم الخاصّة بتلك العلوم والمعبر عنها بتلك اللغات.

يقول عبد السلام المسدي في ذلك: « اللغة سبيل شامل وغير مقيّد في كلّ تحصيل معرفي واكتساب إدراكي، ولأنّ اللغة فضلا عن كونها أداة الاتّصال بين الإنسان والعالم الخارجي ، بما في ذلك الإنسان ذاته، فإنّها تتنزّل منزلة الرّابط الجدلي الفعّال بين العقل من حيث هو أداة التفكير ومكتسبات العقل من حيث هي موضوع التفكير »²¹.

من هذا نستنتج أنّ لغة البحث العلمي تمزج بين المعجم العلمي وبين المعجم اللغوي على ضوء الأسلوب العلمي السليم، والمنهج المنظم الذي يوظف المصطلح المناسب.

ولكنّ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن: ما حدود استعمال المصطلحات في البحث العلمي؟ وهل من ضوابط تنظم هذا الاستعمال؟ ومتى نتحدّث عن اللغات المتخصصة؟ وما علاقتها بالمصطلح من جهة، وبلغة البحث العلمي من جهة أخرى؟

لنأخذ ثلاثة علماء من تخصصات مختلفة، وليكن عالم جيولوجيا، وعالم طب، وعالم نحو، وليقم كلّ واحد من هؤلاء ببحث علمي يندرج ضمن تخصصه، كأن يبحث عالم الجيولوجيا طبيعة التربة في منطقة معينة، ومدى صلاحيتها للزراعة. وليكن موضوع عالم الطب دراسة التأثيرات الجانبية للعلاج بأدوية معينة. وليكن موضوع عالم النحو أن يكشف عن أثر الإعراب في تحديد المعنى من خلال مدوّنة معيّنة، وليطلب من الثلاثة أن يحزّروا بأنفسهم نتائج أبحاثهم. يلاحظ بداية أنّ اللغة التي تجمع بين هؤلاء هي اللغة العلمية بخصائصها التي ذكرناها سابقا. فجميع هؤلاء مطالبون بالموضوعية والوضوح والمباشرة، والابتعاد عن العاطفة والخيال وتأثيرات الذاتية، وتفادي الصور البيانية، والمعاني المجازية، والتمسك بالأسلوب المنهجي الدقيق، والتعبير بالجمال الموجزة، والتراكيب المتسلسلة تسلسلا منطقيا يوافق أفكار الموضوع، وعناصره، وتحليلاته. مع الإستناد إلى المصطلحات العلمية الخاصة بالمجال المعرفي للبحث. فلغة البحث العلمي هي ضابط لجميع موضوعات البحث العلمي، وهي أساس الدّراسات، والقاعدة التي تنبني عليها مهما كانت مجالاتها المعرفية.

هذا ما يجمع بين هؤلاء، فما الذي يفرّق بينهم في كتابة أبحاثهم العلمية؟

اللغات المتخصصة، ومكانة المصطلح منها:

إنّ الفارق بين هؤلاء العلماء الثلاثة هو اللغة الخاصّة لكلّ واحد منهم والتي تنبني على لغة البحث العلمي، وتشكل أهمّ أدواته على الإطلاق، في حين يشكل المصطلح دعائمها الأساسية. فهي تزيد على لغة البحث العلمي شرط التزام مصطلحات علمية محدّدة، مع اعتبار تلك المصطلحات وحدات غير معزولة، أي يتم التعامل معها بخصائصها العلمية، وطبيعتها اللغوية، ومُضمّناتها المفهومية وارتباطاته المعرفية. علما أنّها مرتبطة أساسا بدلالة مفاهيمها ومجالها المعرفي أو العلمي.

ويلاحظ أنّ مصطلح اللغات المتخصصة غالبا ما يستعمل بصيغة الجمع، بينما لغة البحث العلمي واحدة، فهي لا تختلف من عالم إلى آخر بضوابط الدقة والموضوعية والوضوح والمباشرة وغيرها. أمّا اللغات المتخصصة فهي تختلف باختلاف العلوم، والمعارف، ومصطلحات مختلف التخصصات.

وقد يشار إلى اللغات المتخصصة بمصطلح اللغة الخاصة لمقابلة مصطلح اللغة العامة، أو اللغة الطبيعية المشتركة التي تدل على اللغة المتعارف عليها والتي يتحدث بها جميع الناس. هذا التقابل بين المفهومين يشير إليه رونودو Rondeau في قوله:

«L'ensemble des mots et expressions qui, dans le contexte où ils sont employés, ne se réfèrent pas à une activité spécialisée»²²

فإذا كانت اللغة العامة تدل على اللغة المتداولة بين الناس دون تمييز، فإن اللغة الخاصة تدل على اللغة التي لا تفهمها إلا فئة معينة من أهل الاختصاص، ومن ذلك ما نطلق عليه لغة الرياضيات، ولغة القانون، ولغة الفيزياء والكيمياء، وما إلى ذلك.

ولنأخذ مثالا من لغة الرياضيات، فإذا تحدثنا عن مصطلحات مثل: الأس، والجذر التربيعي، والعدد الناطق، والعدد الأصم والتدوير، والعالمي،، إلخ فهي تعدّ طلاسما لعامة الناس، وكذلك في بقية التخصصات كأن نتحدث عن فرق الكمون، والتوتر، والشدة، والجملة الميكانيكية في الفيزياء، وعن المول والكتلة المولية، والكثافة وغيرها في الكيمياء، بل وحتى في التخصصات اللغوية، لا يمكن لغير أهل الاختصاص فهم ما تعنيه مصطلحات العامل، والمعمول، والإعراب، والبناء وغيرها. لذا كانت لغة البحث العلمي واحدة بين هؤلاء جميعا، بينما اختلفت لغات التخصص التي تمثل مصطلحاتها نواتها.

يقول الأستاذ محمد الديداوي متحدّثا عن الدور المركزي للمصطلح في لغات التخصص: «الاصطلاح في اللغة المتخصصة في منتهى الأهمية، وتصلح المصطلحات لما يلي:

- تنظيم المعرفة على أساس العلاقات بين المفاهيم

- نقل المعرفة والمهارات والتكنولوجيا

- صياغة ونشر المعلومات العلمية والتقنية

- ترجمة النصوص العلمية والتقنية

- استخلاص وإيجاز المعلومات العلمية والتقنية»²³. فهذا النص يوضّح وظيفة المصطلح وأهميته في اللغة الخاصة التي تتحدّد طبيعتها برصيدها اللفظي.

وحيال السؤال عن العلاقة بين اللغة العامة واللغة الخاصة، اتفق كثير من العلماء على أنّ لغات التخصص هي استعمالات للغة العامة التي هي في الأصل مصدر جهازها المصطلحي كما جاء في دراسة مونية حمّامي :

«la langue de spécialité témoigne d'un usage particulier de la langue générale lorsqu'elle est utilisée dans une situation de Communication qui implique la transmission d'information relevant d'un champ d'expérience particulier».²⁴

أي أنّ لغات التخصص هي استعمالات للغة العامة، لكنها تنقل معلومات تنمي إلى حقول معرفية خاصة.

واللغات المتخصصة تستعمل أساليب اللغة العامة نفسها، وتلتزم بضوابطها الصوتية والصرفية والتركيبية، ولكنها تختلف عنها بمفاهيمها الدقيقة، ومعانيها المحددة تحديدا لا يترك مجالاً للتردّد. في حين تتصف اللغة العامة بسعة دلالاتها، وشمولية معانيها. فمصطلح (الحج) لغةً يعني القصد عامة، أمّا في الشريعة فيعني قصد بيت الله. وكلمة (العامل) في اللغة العامة تعني كلّ من يقوم بعمل ما، أو يزاوّل مهنة من المهن، أمّا في اصطلاح النحاة فتعني ما يُحدث أثراً إعرابياً في الكلم.

فالدلالات تتحدّد، والمعاني تضيق باتجاه المصطلحات من المعجم اللغوي العام إلى المعجم اللغوي الخاص، وهي تتسع وتتمدّد بالاتجاه المعاكس، باعتبار المصطلحات ناقلة لمفاهيم علمية دقيقة في مجالات معرفية معيّنة.

إستنتاج:

يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ لغة البحث العلمي هي لغة موحّدة بين جميع العلماء مهما اختلفت لغاتهم وتنوّعت تخصّصاتهم. وتعدّ هذه اللغة الخطوة الأولى التي تشكّل قاعدة اللغات المتخصصة، فكلّ لغة تخصّص هي أيضا لغة بحث علمي، ولكنّ العكس غير صحيح. ولا يمكن فصل اللغة الخاصّة عن اللغة العامّة من جهة أنظمتها الصوتية والصرفية والتركيبية والسياقية. بل هي مصدر لها من حيث المعجم اللغوي والقواعدي. كما أنّ لغات التخصّص تقوم على مركزية المصطلحات العلمية فيها، ممّا يكسبها طابعها التخصّصي، ويجعلها وقفا على أهل الاختصاص.

وتستمرّ حركية المصطلح بين لغة البحث العلمي التي يدعمها، ويثبّت علميتها، وبين لغات التخصص التي لا تقوم بدونه.

الهوامش:

¹ محاضرات في علم النفس اللغوي، الدكتور حنفي بن عيسى: ط1. 1993 الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية الجزائر. 63.

² في علم اللغة العام، الدكتور عبد الصبور شاهين مؤسسة الرسالة- الطبعة السادسة- 1413هـ/ 1993م- بيروت - لبنان. 123.

³ المنجد في اللغة- تنسيق: د. محمد عبد النبي السيد غانم- ط26- دار المشرق العربي- بيروت- ص 527.

⁴ العلم للجميع، أفكار وآراء، ألبرت أنشتاين، ترجمة رمسيس شحاتة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ص. 252.

⁵ أصول البحث العلمي ومناهجه، د. أحمد بدر، 1973، وكالة المطبوعات، الكويت، ص 18.

⁶ اللغة العربية العلمية، بلعيد صالح، دار هومة، الجزائر، 2003، ص 47.

⁷ مستوى التدرّج، وما بعد التدرّج الأول والثاني (الماجستير- الدكتوراه).

⁸ البحث الجامعي بين التحرير والتصميم والتقنيات العربي بلقاسم فرحاتي- دار أسامة للنشر والتوزيع- 2012- ص 30

⁹ مبادئ في اللسانيات -خولة طالب الإبراهيمي- ط2- 2006- دار القصبة للنشر والتوزيع- الجزائر- ص9.

¹⁰ المرجع السابق، ص 11 .

¹¹ المصطلحات العلمية في اللغة العربية (في القديم والحديث) – مصطفى الشهابي - معهد الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية، 1955-ص4/3.

¹² البستان -البستاني (عبد الله بن ميخائيل 1854م-1930) المطبعة الأمريكية -بيروت- 1927 -ج1- ص 349.

¹³ الذخيرة اللغوية العربية- اللسان العربي-ع 27- مكتب تنسيق التعريب- الرباط- 1986- ص 47.

¹⁴ قاموس اللسانيات، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، د ط، 1984م، ص 16.

¹⁵ الأسس اللغوية لعلم المصطلح- محمود فهمي حجازي- دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع-1995-ص 13.

¹⁶ فقه النوازل ، قضايا فقهية معاصرة، (بحث: المواضعة في الاصطلاح)، بكر بن عبد الله أبو زيد (ت1429هـ) ، ط1، 1416هـ/ 1996م، مؤسسة الرسالة، ج2، ص 148.

¹⁷ الردّ على المنطقيين، ابن تيمية، دار ترجمان السنة ، باكستان، 1976، ص49.

¹⁸ المرجع السابق- ص 52.

¹⁹ الأسس اللغوية لعلم المصطلح- ص 12.

²⁰ قاموس اللسانيات(مرجع سابق) - ص12.

²¹ اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص140.

²² Rondeau, Guy, Introduction à la terminologie, Gaétan Morin, Québec, 1991, p24.

²³ الترجمة والتعريب بين اللغة البيانية واللغة الحاسوبية، محمد الديدواوي، ط1، 2002، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص 275

²⁴ Caractéristiques générales et spécialités des langages de spécialité, Monia Hammami , Al-Mutargim, n° 32

janvier/mars ;2016, p7/8 .